الفصل السابع

أبعاد الهزيمة الإسلامية

كان لسقوط الخلافة في أوائل هذا القرن دُوِيٌّ مسموع في القارات الخمس ، وأحست القوى المعادية للإسلام أنها أحرزتَ نصراً لا مثيل له منذ احتدت الخصومة بينها وبين هذا الدين .. !

نعم .. سقطت الخلافة في بغداد خلال القرن السابع ، بَيْدَ أن البون بعيد بين الحالين .

إن التتار المنتصرين لتفوقهم العسكري كانوا أحط حضارة ، وأقل ثقافة من الأمة المهزومة ، وإذا كانوا قد غلبوا حكماً غلبته عللُه ، وأحاطت به خطيئته ، فإن الأمة الجريح سرعان ما تيقظت فيها مواهبها المخدَّرة ، وثاب اليها رُشدها .

وما هى إلا سنون وسنون حتى دخل التتار أنفسهم في الإسلام ، وتحوَّلوا إلى دم جديد في كيانه ...

أما الرجل المريض في أوائل القرن الرابع عشر فكان يُعاني من عِلَل أفدح ، وجراحات أنكى ، وكان عداته قد صعدوا في سلم الترقي ، وواصلوا الصعود ، وهو جاثم على مكانته حتى أضحوا في وضع يُشرفون عليه ، ويُهيمنون على حركاته وسكناته ..

كما يستمكن الضارب على قمة جبل من الماشين بالسفح ..

وأخذت القُوى المعادية للإسلام تعمل ضده ، وهي واثقة من موقفها ، واستطاعت بتفوقها الثقافي والسياسي أن تنال أكبر فوز بأرخص ثمن .

ويكفي أنها من مكانها العالي سلَّطت بعض المسلمين على بعض وفرغت هى لجنى الثمر .

أغرت الترك بالعرب والعرب بالترك ، حتى أوهنت قوى الكل .. ولما رأت الرجل المريض يتشبث بالحياة ويحاول الصمود ، أغرت « مصطفى كمال » ففتك

بنظام الخلافة أى أن النظام الإسلامي انتحر ، قتل نفسه فلم تظهر اليد الصليبية وهي مُخضّبه بدمه ، لقد كفاها النظام العسكري المرتد هذا العبء . !!

وهذا هو الأسلوب الذي تكرَّر في غضون هذا القرن لإخماد أنفاس الإسلام كلما بدت منه حياة . تكرَّر في أقطار شتَّى ومن ورائه الاستعمار العالَمي وضغائن القرون .

وجهدِ القوى المعادية للإسلام خلق فئات مغرورة ، مرتدة تقوم بدلاً عنها بمطاردة شُعَب الإيمان واحدة واحدة .

فإذا ظهر أن كفة الإسلام سترجح كشف أعداؤه الأصلاء النقاب ، وأعانوا أذنابهم ، ومدوا بقاءهم ... ثم عادوا إلى أوكارهم يرقبون الموقف وهم يبتسمون .

وانفرط عقد الدولة المهزومة عن عشرات الدويلات التي خضعت للاستعمار الجديد أو دارت في فلكه ..

فأين الإسلام الذي كان يجمعها بصبغته ، ويظلها برايته ؟

لقد تقرَّر طمس حقيقته ، وإخفاء اسمه .

كأن الخليفة رب أُسرة مطارَدة له ذرية ضعفاء ، فلما قُتِلَ فَرَّ الأفراد إلى المشارق والمغارب يلتمسون لأنفسهم المهارب ، ويتخفون في زحام الخلق ، حتي لا يعرف أحدهم بنسبة ، فيُقتل كما قُتِلَ أبوه .. !!

المسلمون في هذا القرن - بعد ضياع جامعتهم الكبرى - أوزاع مُفرَّقون على أكثر من سبعين دولة ، كثرة ساحقة في بعضها وقلة مسحوقة في بعضها ...

والكثرة والقلة تنظر إلى دينها بحذر ، هناك مَن يجد الجرأة فيعلن ولاءه له ، وهناك مَن يحمحم ولا يستطيع النطق ، وهناك مَن يلوز بالصمت ، وهناك مَن يُعلن البُعاد .

وكما قال شوقي : ظهرت دعوات لسجاح جديدة ولمسيلمة جديد ..

فهناك حاكم يدَّعي الإسلام - يُعلن أن السُنَّة لا أصل لها ولا بقاء ويضع برامج للخلاص منها .

وهناك من يرى أن النصرانية والإسلام دينان متساويان ينبغي أن يُدرسا في كتاب واحد ..

وهناك من يرى أن محمداً ﷺ عبقرية عربية ناجحة ، تصلح لتكون إحدى القُوَى في بعث عربي جديد .

وإلى جانب ذلك يوجد مشتغلون بالعلم الديني لا يزالون يناقشون الجهمية والمعتزلة في القرن الثاني !! وأدعياء زهد يريدون البحث عن تقاليد التصوف في « بلخ » لرجم العصر الحالي بها ..

وأعداء الإسلام الفائزون في سباق السلام ، والتسلح على سواء يرمقون هذا الخليط العجيب وهم يتضاحكون .. ولِمَ لا ؟ وهم مُشارِكون في صنعه .

نعم .. إن الغزو الثقافي الذي رُسِمت خططه بمهارة يقوم بوظيفته خير قيام ، ومن ورائه ساسة مهرة ، وعلماء نفس ، ورجال أعلام ، وأجهزة مالية وإدارية في شركات اقتصادية كبرى ، وأفلام من كل نوع للمسرح والسينما والتليفزيون، وعيون ساهرة في الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية الموجَهة بذكاء ...

وأخيراً .. ومنتمون إلى الإسلام لا عبادة لهم ولا دراية .

* * *

● نظرة إلى الحملة الصليبية الأخيرة :

لم تُضع الصليبية العالَمية ساعة في استغلال التخلف المدني والعسكري للمسلمين ، وأخذت تعمل ليلاً ونهاراً لتوسيع دائرتها على أنقاض الأمة المنهدمة .

وفي القارات الخمس بدأ التبشير بين المسلمين المقيمين والمغتربين ، والأصحاء والمرضى ، والمثقفين والأميين ، والعرب والأعاجم ، بدأ بمختلف الوسائل ينصب حبائله ويملأ يديه بغنائم باردة ...

ونلحظ أن الخصوم القُدامى أصلحوا ذات بينهم ، واجتمعت صفوفهم ، على أمل أن يُجهزوا على الإسلام في محنته ..

اتفقت اليهودية والنصرانية ، وغُيِّرت عبارات في الصلوات المسيحية ، وأُولت نصوص في الأناجيل ، وانتهت عداوة عشرين قرناً ليواجه هؤلاء وأُولئك الإسلام معاً .

واتفق الڤاتيكان مع الكنيسة الشرقية التي ظل يحاربها طوال ستة عشر قرناً، ويُعدها مارقة عن التعاليم الصحيحة ، ومَدَّ إليها يده ليواجه هؤلاء وأُولئك الإسلام معاً ..

واتفق الكاثوليك مع البروتستانت وتنُوسيت الخلافات والمعارك الداخلية بين الفريقين ، وأمست المؤتمرات المسيحية تجمع بين الفريقين ليواجهوا الإسلام معاً .

بل إن الاستعمار الصليبي لجأ إلى خطة بارعة ، ترك الشيوعية تضرب الإسلام ، وأعانها ، ومكَّن لها ، واستقدم رجالها ومبادئها في الأقطار التي لم تبلغها .. ! حتى إذا أوشكت أن تستولى على الدولة تَدخَّل هو في الوقت المناسب ، وتعاون مع إدارة إسلامية ضعيفة ، ومهَّد لها طريق الحكم على شرط أن تترك التبشير المسيحي يعمل عمله دون اعتراض ..

وذلك سر إذاعة صوت الإنجيل من « أم درمان » العاصمة الإسلامية ، وسر الأجهزة التبشيرية الهائلة في جزائر أندونيسيا الرحبة ..

وماذا يُتوقع بعد هذا كله ؟ بعد أن تظاهر اليهود والنصاري والشيوعيون والبوذيون وغيرهم على أمة مُتعَبة لاهثة الأنفاس ؟

لقد نجح التبشير النصراني في قصِ أطراف كثيرة ، وأمكنته الظروف التعيسة التي يعيش فيها مسلمون مضطَهدون أو مضيَعون أن يغرى بالارتداد عن الإسلام ناساً كثيرين في أندونيسيا وبنجلاديش وبورما والفلبيين ، بل إنه يهجم الآن بقوة في البلاد العربية نفسها .

وطريقة التبشير الأولى استغلال الفقر والانقطاع .. ولديَّ تقرير من أُستراليا يُفيد أن رب أُسرة فاراً من تركيا كاد يهلك من الضياع ، فأسعفته بعثة تبشير ثم تنصَّر الرجل وأولاده ، وهم الآن يُكوِّنون أُسرة فوق المائة .

والمسلمون في أستراليا نحو خمسين ألفاً جلهم من المهاجرين الأعاجم ، وأقلهم من العرب ، وقد بذلت المملكة العربية السعودية جهوداً مشكورة للتعرف عليهم ، وإقامة مركز إسلامي بينهم لعله فى طريقه إلى الظهور .

وسيل المرتدين عن الإسلام في أندونيسيا كبير ، ربما تجاوز المليون .

وقال لي مسلم أندونيسي إنه يعرف موظفاً التحق بشركة للمياه الغازية بمرتب حسن ، وكان مسلماً محتاجاً قبل أن يجد هذا العمل ، فلما استقر فيه وبدأت أموره تتحسن خُيِّر بين الفصل أو الدخول في المسيحية ، ودخل الرجل وأولاده المسحية ليعيشوا !! وعندما طردت حكومة بورما البوذية نحو نصف مليون مسلم من البلاد سارع الصليب الأحمر - مشكوراً - ليوزّع اللّبن على الجياع ويُقدِّم المأوى للشاردين .

وأنا أعرف أن نساءً كثيرات هنديات الأصل اعتنقن النصرانية ، ويقمن الآن بعمل هائل في دول الخليج ، في البيوت والمستشفيات ومدارس الأطفال ..

إن التبشير فى صمت حيناً ، وفي مجاهرة حيناً يتحرك في كل القارات والأمل الذي يداعبه أن ينتهي - في القرن العشرين - من الإسلام ، أو من عناصر القوة التي تستبقيه .

وإذا كنا نحن نحتشد في نهاية القرن الرابع عشر الهجري لنُدير الرأى فى خطة نستأنف بها الحياة ، فإن القوم يفكرون خلال القرن العشرين الميلادي كيف يقضون علينا وعلى ديننا ، وتتخلص الدنيا من محمد ﷺ ودينه جملة وتفصيـــلاً ... !

ونحن نُثبت هذا المقال المنشور في مجلة مسيحية لنعرف بجلاء الوجهة التي تسير إليها معركة الأديان خلال هذا القرن ...

« المسيحية تكتسح القارة الإفريقية » (١)

سوف تكون سنة ٢٠٠٠ سنة فخر لإفريقيا دون بقية القارات الأخرى إذ يصبح أكثر سكانها من المسيحيين . لأن النسبة الحالية للارتداد إلى المسيحية قد بلغت مليون نسمة سنوياً باستمرار .

وهذا الإحصاء حسبما يراه كل من المتحدثين المسئولين عن الكاثوليك والإنجليكان في واشنجتون عند الحديث عن وضع الإرساليات ومبعوثيها في إفريقيا .

وهذه نظرية قالها « داود باريت » في الستينات .

ويؤيده في الرأى « كانون بيرجبس كار » الأمين العام لمؤتمر كنائس عموم إفريقيا .

ولكنه تقدَّم خطوة أخرى في الحديث عن « أفرقة المسيحية » بما قرَّره من أن نموها سيكون أسرع في الكنيسة الكاثوليكية منه في الكنيسة البروتستانتية . من حيث يجد الأفارقة « الكاثوليكية » أكثر ملاءمة لهم .

إن الإحصاء العددي لسكان إفريقيا سنة ١٩٧٦ - بما فيهم عرب الشمال - بلغ ٤٣١ مليون نسمة . والكنيسة الكاثوليكية تملك مليوناً ونصف مليون كنيسة في جنوب إفريقيا وأعضاؤها يبلغون ٤٦ مليون حسب إحصائية قام بها الڤاتيكان .

وفي السنين الأربع الماضية بلغ معدل من يدخل في المسيحية مليون شخص سنوياً ويزيد عدد البروستانتيين عن غيرهم من الفِرق المسيحية بخمسة وستين مليوناً .

يعتبر رجال الكنائس الأمريكية أنه لا تقصير في ازدهار المسيحية فى إفريقيا أو الصَعيد العالمي حيث بلغ عدد المسيحين فيه أكثر من ١٫٢ بليون نسمة .

فنجاح الإنجليكانية واستمرارها فى مشاريع المساعدات للأفراد هما أكثر فاعلية .

---

(١) عن مجلة « توزي فوتيت أنترناشيونال » الصادرة فى بلجيكا عدد ٢٣ مايو ١٩٧٧

وتقسيم الأعمال مبني على أساس أن اللُوثرية مثلاً نشيطة في الإذاعة ، بجانب عملها فى المناقشات التقليدية المتطورة ، وإعطاء المعونات القرضية للكنائس والمستشفيات وللبرامج الزراعية الأهلية .

ففي الحبشة يباشر العمل في محطة الإذاعة نفر من الأخصائيين ، وصوت راديو « إذاعات الإنجيل » مُجهَّز بأشرطة التسجيل ويعمل في كل الميادين .

ويُذيع في الأستديوهات الفرعية الصغيرة في كل من أثيوبيا وإفريقيا الجنوبية الغربية والكاميرون وإمبراطورية إفريقيا الوسطى ومدغشقر ونيجيريا وجنوب إفريقيا وتنزانيا .

وقد رُتِبَت البرامج على أن تكون باللُغات الأمهرية الأثيوبية والفولاذية في الكاميرون .

أما الشئون الطبية العلاجية فتقوم بها « الادفنت » التي تملك عشر طائرات إرسالية مهماتها نقل الأطباء والممرضات لعلاج المرضى في الأحراش .

وقد أنشأت خمسة عشر مستشفى وباشرت العمل فيها . وبلغ عدد الأسِّرة فيها ١٧٧٦ سريراً

وخمسة من هذه المستشفيات خاصة للجزام . وهناك إلى جانب ذلك أكثر من ١٠٩ عيادة ومخزن أدوية ، وهناك مائة وثلاثة وستون من بين الثلاثة أرباع المليون من الإدفنتيين يعملون فيما وراء البحار .

إن « ر . م . رينهارد » البالغ من العمر ٢٧ سنة – وهو محارِب قديم أدَّى واجبه العسكري في إفريقيا ويقوم الآن بعمل أمين الصندوق المساعد للمؤتمر العام للإدفينيتت قال :

« إن هذه المنظمة غير سياسية النزعة . وفرقتها عبر إفريقيا قوية .

والمركز الرئيسي في « ساليسبورى » يباشر كلاً من روديسيا وجنوب إفريقيا ومالاوى وزامبيا وزائير وإفريقيا الجنوبية الغربية (ناميبيا) وراوندا وبوروندي .

وعكس ذلك فإن الكنيسة المسيحية المتحدة التي هى مرادفة للكنيسة الطائفية

في جنوب إفريقيا تعتبر نفسها - سياسياً - نشطة وتساعد بقوة حركات السود ، وهى - في نفس الوقت - ضد التفرقة العنصرية » .

وقد عقدت هذه الكنيسة « محاورة متحدة » بين العناصر المختلفة من الأساقفة والشيخين والميتوريستيين بالقرب من مدينة آليس سنة ١٩٧٥

وفي الوقت الذي اتخذت حكومة جنوب إفريقيا إجراء إلغائها ونقل نشاطها إلى مدينة « أوستانا » في « ترانسكي » تقوم الآن بالتدريس خارج المخيمات .

ويلاحظ الأب « سيمون ى . سميث » السكرتير التقليدي لإرسالية « جوسييت » في واشجتون والذي رجع حالياً من « زائير » أن ألأفارقة يجب أن ينبذوا البقية الباقية من الاستعمار » .

ولتحقيق هذا « التغيير السياسي المفاجيء » فإن الإرسالية في إفريقيا يجب أن ترضى اليوم بأن يكون العمل تحت قيادة الزعماء السود .. لكي تخدم الكنيسة . وليس بقيادة جماعة من المتوحشين الظالمين . وأبلغ الأب « سميث » في تقريره هذا أن هناك . . ١٥ من « الجوسييتين » في إفريقيا الآن . وأن ثلث هؤلاء من السود الذين هم في إطراد متزايد ويتولون الأعمال المصيرية الهامة .

وينبغي أن نذكر أن « لوريان روجامبوا » من تنزانيا هو أول كاردينال أسود من هذه الفرقة .

وهو أحد الإثنى عشر من الكرادلة الكاثوليكيين في هذه القارة : عشرة من زملائه إفريقيون . واثنان فقط من البيض .

ومن بين ٣٠٠ أسقف كاثوليكي في إفريقيا يوجد ١٩٥ من الأفارقة ، ومعظمهم من السود ، يخدمون في شرق وغرب ووسط إفريقيا .

هذا ورئيس جمهورية ليبيريا « وليم . ل . توليبيرت » يشبه رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية « چيمي كارتر » فى أنه معمداني وعضو عامل في الكنيسة .. !!

ففي سنة ١٩٦٠ صار أول أسود اختير رئيساً للجمهورية في الاتحاد المعمداني العالمي وخدم مدة الرئاسة خمس سنوات وما زال يعمل قسّاً فى

الكنيسة المعمدانية في إفريقيا بقرب منزله في « بيونسون فيل » في ضاحية « مونروفيا » .

والدليل على فخر المعمدانية في إفريقيا وجود ...ر١١١ محطة إرسالية في ٣٨ بلدة ومجموع أعضائها من الوطنيين السود هو ...ر٨٢٦ عضو . ولكن العلاقات المعمدانية أكثر قوة في كل من زائير ونيجيريا .

والثقة تعطي أملاً أكثر في صدق نظرية سنة ...٢ وغلبة النصرانية على القارة كلها من زيادة استقلال الكنائس الإفريقية .

وهناك منذ السنين العشر الماضية سعى إلى توحيد الفرق البروتستانتية في الكنائس الاتحادية مثل كنائس زامبيا وملاوي والشعوب الأخرى .

ولكن هل يعيش الدين المنظم مع النكسات التي وقعت أخيراً مثل التغير الوضعي الذي قام به رئيس جمهورية أوغندا « عيدي أمين » نحو المسيحيين .

إن رد فعل واشنجتون في هذا الموضوع متضارب :

إن عضو مجلس شيوخ « ايداهو جرامك شريس تاني » العضو القوى في لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ يشعر بأن حوادث أوغندا الحالية هى استعراض قبيح للضغط على حقوق الإنسان . ويقول ذلك العضو مستطرداً : « إن المشكلة الحسّاسة في هذه السنين هى مستقبل الإرساليات المسيحية لا سيما الإرساليات البيضاء في الشعوب السوداء .

إن زيادة الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية هى اعتراف صريح بتقدير أعمال هذه الكنائس .

وقد يُنظر إليها تارة على أنها تعطي صورة عن ذكرى غير مستحسنة عن أيام الاستعمار .

إن الموضوع الأساسي المهدَّد بالخطر في إفريقيا اليوم هو : « حقوق الإنسان » التي منها حرية الأديان ، ولكن رغم هذه المشاكل ولأجل هذا التقدم فإن أكثر الإرساليات المسيحية في إفريقيا تريد العودة إلى القارة السوداء ، فالراهبة

البيضاء « تريسي » الكندية الفرنسية المشرفة على بيت راهبات واشنجتون في إفريقيا لخصت الهدف العام للإرسالية - وتمثلت بالقول السائر المشهور لدى كثير من المحاربين القدماء الذين حاربوا في إفريقيا : « من شرب مياه إفريقيا فإنه سوف يعود إليها مرة أخرى » .

* * *

• غارة شعواء :

لقد بدا واضحاً أن القُوىَ المعادية للإسلام تقصد قصداً إلى القضاء عليه ، والخلاص منه ، وجاشت أماني خبيثة في عقلها الباطن تنشد الويل للمسلمين والدمار لقضاياهم الفكرية والاجتماعية .. !!

وقد قلنا : إن الجامعة الاسلامية تلاشت سياسياً مع سقوط دولة الخلافة خلال هذا القرن ، وتمخض تفتيت الدولة الكبرى عن عشرات من الدول التي تضم جماهير غفيرة من المسلمين .

إلا أن الخطة المرسومة بدهاء حدَّدت للدويلات الناشئة مسارها .

وبدأت فحذفت الولاء للإسلام من بنائها الخُلُقي وسلوكها العام ، فأضحى الولاء للأرض والجنس ، وارتفعت أعلام القوميات الضيقة في أغلب الأقطار الإسلامية .. فهل يُسمح للإسلام أن يكون جزءاً من مفهوم هذه القوميات المُحدَثة ؟ .

لقد سُمِحَ له بوجود ضعيف في بعض الأنحاء ، وجود محروم من أسباب النماء والتأثير ، على حين سُخِّرت عناصر كثيرة لجعل الولاء القومي يتحرك ويتطور .

ومن هنا أخذ الإسلام في ميدان التربية والسياسة يتراجع ويتخاذل ، وأخذ الاستعمار العالَمي يملأ الفراغ المتخلف في كلا الميدانين ، فتكونَّت أجيال مستوحشة من دينها ، زاهدة في عاداته وشعائره ، أو لعلها منكرة لها ، متمردة عليها .

وأمكن في الميدان السياسي قسم العالَم العربي والإسلامي قسمين منفصلين - براً وبحراً ؟ - وذلك بإنشاء دولة يهودية على أنقاض فلسطين وشعبها المضطهَد المغبون ...

وإذا كان الاستعمار قد أمات الولاء للإسلام ، وعد إحياء هذا الولاء خيانة وطنية ، فإنه أحيا الولاء لليهودية والنصرانية ، وأقام إسرائيل رمزاً للولاء الديني المأذون به علانية !!

وشرع يُحرِّك الطوائف النصرانية في العالَم العربي والإسلامي ، ويُملي لها في أسباب الدعوى والاغترار ، ويُغريها بالبطر والانتقاض ، ويهمس في آذانها بمطالب مجنونة ، وذلك كله حتى يُقيم جدراناً سميكة بين المسلمين والعودة إلى دينهم ، والتعلق بجامعتهم الكبرى .. !!

والنصارى في الأقطار العربية يتراوح عددهم بين ٧ - ١٠ ٪ من سكان مصر وسورية والأردن وربما بلغوا ربع السكان في لبنان ..

والخطة التي وُضِعَت ونُفِّذَت اعتبار القلة كثرة ومنحها حقوقاً أدبية ومادية تربو على أضعاف حجمها الحَقيقي مَثنى وثُلاث ورُباع ..

وفي لبنان رأي الاستعمار أن تكون الدولة نصرانية ، وقبل منها أن تهضم الكثرة المسلمة وأن تلقي إليها بالفتات !!

والعجيب أن نصارى لبنان ألَّفوا فِرقاً عسكرية تعاونت مع إسرائيل جهرة ، وسفكت الدم الإسلامي بغزارة ، ومع ذلك فإن العرب استحوا من اتهام هذا التصرف بالتعصب الديني ، وسَمُّوا من يقترفون هذه الخيانات « انعزاليين » و « يمينيين » و« رجعيين » .. ولم يشاءوا وصفهم بما يصفون به أنفسهم من أنهم مسيحيون !! ..

والسبب في هذه المراوغة الإعلامية ظاهر ! ، فإن وصفهم بالنصرانية قد يُحرِّك في جماهير المسلمين النزوع إلى الإسلام - كرد فعل طبيعي - فليُسدل ستار الصمت عن هذا الوصف المخوف النتائج .. !!

وكان لبنان بعد حصوله على استقلاله محكوماً بنظام ظاهره مدني قومي ، ولكن أوضاعه الإدارية نُسِّقت بطريقة تجعل الكثرة المسلمة محقورة مهيضة الجناح ..

غير أن أتباع الدين المهزوم لم يتخلُّوا عنه ، ولم يقبلوا طويلاً هذا الهَوان ، فانفجرت ثورات شتَّى تبغى إعادة التوازن بين الطوائف التي تُكوِّن لبنان .

ولا ندري ماذا تنتهي إليه الأُمور في هذا القُطر الذي يُراد تنصيره من نصف قرن ولا بأس أن نسجل الأُسلوب الذي رُسِمَ لتحقيق هذه الغاية ..

وهذه ترجمة منشور وُجِدَ مصادفة في أحد الأديرة كُتِبَ بالفرنسية سنة ١٩١٣ موجهاً من الدولة الأُم إلى أبنائها المخلصين أبناء يسوع المسيح ، مبدوءاً بهذه الجمل :

يا مَنْ صبرتم على الذُّل والهوان عبر القرون دفاعاً عن عقيدتكم - يقصد أيام الحكم الإسلامي - أيها الشرفاء الأطهار .. لا تنسوا هذه الوصايا العشر :

١ - قد رتبنا لكم أهم الأشياء التي تضمن لكم معيشة حسنة على هذه المنطقة ، مثل تمليك الأراضي ، والوكالات الأجنبية ، والوضع السياسي ، وشئون النقل ، ويبقى عليكم أن تحافظوا على هذه المكاسب وتزيدوها مع الأيام ...

٢ - إن هذا الوطن لم يُخلق إلا لكم . حتى تجمعوا شملكم ، وتباشروا حريتكم بعد الحروب الأخيرة التاريخية ، فاعلموا جيداً أن كلمة لبناني معناها مسيحي .

أما العرب الذين جاءوا من الصحراء فيجب أن يعودوا إليها ..

٣ - جاهدوا للسيطرة على المصايف وأُمور السياحة وامتلاك ساحل البحر ، وأخرجوهم من قراكم كلما أصبحتم أغلبية ، ولا تنسوا تجهيز ميناء احتياطي في مدينة غير بيروت لا يكون فيها مسلمون ، وذلك عندما تسنح لكم الفرص .. !! - تم انشاء ميناء مسيحي - .

٤ - عليكم بأسباب القوة من رياضة ، وسلاح ، وتنظيمات للشباب ، واهتموا بالجيش وعليكم بكتمان أموركم ..

٥ - احرصوا على الزعامة الأدبية مثل نشر الكتب ، والسيطرة على النقابات ، والاتحادات ، ولا تعترفوا بأن تراث لغتكم وتاريخكم ملك للمسلمين ، وحاربوا « بلا هوادة » الأفكار والأشخاص الذين يعاكسون اتجاهكم ..

٦ - إن الاختلافات المذهبية بينكم يجب أن لا تخرج عن النظرية السطحية ، لأن حياتكم مرهونة باتحادكم أمام العدو الكافر ، من حيث إنكم أبناء يسوع علّمنا المحبة .

٧ - ادرسوا دائماً مخططات الآخرين ، وتدخلوا معهم لكي تعرفوا ما عندهم ، ولا مانع للبعض من التظاهر بتأييدهم عند الضرورة ، ولكن على كل واحد منكم أن يبقى مرتبطاً بمبادئه وكنيسته ..

٨ - ارفعوا رؤوسكم في كل مكان ، واعلموا بأن كل القوى الجبارة في العالم الحر تساعدكم ، وتقف بجانبكم في أسرع وقت ! ولكن عليكم أن تتصرفوا كأنكم لا تعرفون ذلك ..

٩ - اجتهدوا بالتقرب من ملوك العرب ورؤسائهم بالخدمات الشخصية ، وهذا شيء سهل جداً يفتح لكم مجالات واسعة للعمل ، ويدر عليكم أموالاً هائلة ونفوذاً أكبر حتى في البُلدان المستعصية عليكم .. !!

١٠ - إن حركة الجنسية اللبنانية شديدة الأهمية فدققوا كثيراً في ذلك ، واهتموا بإخوانكم المغتربين والذين نزلوا عليكم من البُلدان الأُخرى حتى لا تضيع الأغلبية المقررة لكم .. ألا جدُّوا كل الجد .

* * *

● أعماق الحقد الصليبي ، وآثاره في الصحافة الغربية :

كنت مدعواً لزيارة المغرب في رمضان سنة ١٣٩٣ هـ ، وهناك فوجئت بنشوب الحرب بيننا وبين اليهود ، لم يكن هناك ما يُومىء من قُرب أو بُعد إلى أن الجبهة سوف تشتعل !! ومع دهشتنا للنبأ ، وحبنا لاستطلاع كل ما قد يقع ، وخشيتنا من جرح حديد يحرك الجراح القديمة ، أخذنا ننصت إلى كل إذاعة من أي عاصمة ، ونتلهف على بُشري تُطَمْئِن أو رواية تُعَرفنا ما يجري ...

وجاءت الأخبار الأولى تذكر أن المصريين عبروا القناة من مواضع عدة ، وأن اليهود يتراجعون ، وأن حصون خط « بارليف » المنيعة تتهاوى .

ولم نكن نصدق آذاننا من عظمة ما نسمع .. وشعرنا بالفرح الغامر ، وزادنا فرحاًأن عواصم العالَم كانت ضائقة بما يحدث ، وأنها كانت تنقل حركات الجنود المسلمين ، وصيحات التكبير التي سادت الجبهة على طول سبعين ميلاً ، كانت تحكي ذلك بشيء غير قليل من الكآبة .

وكلما حرَّر المصريون مزيداً من الأرض ، واتسعت دائرة النصر ، وربت موجة الإيمان وقيل : إن الجنود ينطلقون تحت شعار التكبير لا يقفهم شيء ، كانت تعليقات العواصم الغربية على ذلك : لقد عادت الهمجية !!!

أي همجية ؟ !!

القتال بباعث من تكبير اللّه وتوحيده همجية ؟ والاستيلاء على حقوق الآخرين المادية والأدبية هو الحضارة !!!

المؤسف أن حرب رمضان لم تمض من النقطة التي انطلقت منها ، ولو بقيت مع تكبير اللّه ، واستمداده وحده لبلغ العرب « تل أبيب » ، ولكن القيادات لم تكن على مستوى هذا الإيمان العالي ...

ورداً على مشاعر الإيمان التي تفجرت مع بدء الزحف أخذت الصحف العربية تنشر أن اللّه ليس واهب النصر الأول .. وأنه لا صلة له بالمعركة - وتبين لنا بعد - أن الكُتّاب شيوعيون - وخُيِّل إليَّ أن هذا الكلام كُتِبَ باتفاق مع عواصم غربية .

أجل .. لقد تعاونت القوى الشريرة على ضرب الإيمان الذي كشفت عنه المعركة .

وأحس الشرق والغرب معاً أن المسلمين مشدودو الأواصر إلى دينهم ، وثيقو العلائق بربهم ، فتكاتفوا على الكيد لهذا الإسلام ، والتنكيل بدعاته حتى لا يصنعوا مرة أخرى رجالاً يعبرون العوائق الصعبة ، ويهدمون قلاع العدوان ..

إنني أذكر أن أول مهندس قُتِلَ وهو يقيم جسراً للعبور كان من روّاد مسجد عمرو بن العاص ، وقد أرسل إليَّ بتحياته عشية استُشهد ..

إن الأبطال الذين صرخوا بتوحيد اللّه وتكبيره وهم يَهدُّون حصون الأعداء ، حرّكوا ضغائن الصليبية في عواصم الغرب فوصفتم بالهمجية !!

ألا شاهت الوجوه ...

وتذكرتُ كلمات السيد جمال الدين الأفغاني وهو يتحدث عن موقف أوروبا من قضايانا كلها: قال : إن الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كمون النار في الرماد ، وسَورة التعصب لم تنفك حية تعتلج في قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت في قلب « بطرس الناسك » من قبل .

فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها ، متغلغلاً في أحشائها ، متمشياً في كل عِرق من عروقها ، وهى أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد ..

وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان في كثير من الشئون الخطيرة والقضايا الدولية الكبرى ، حيث القوانين الدولية ، والمواثيق العالمية ، لا تُعامَل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية ... إلخ .

وفي سبيل تعويق النهضة الإسلامية القائمة ، وبث الظُلمة في آفاقها ، اجتمعت الأضداد وتمت أمور ذات بال ، وقد أشرنا في مكان آخر كيف تلاقت اليهودية والنصرانية وصُفِّيَ ما بينهما من خلاف ظل عشرين قرناً .

وكيف صُفِّيَ الخلاف بين الكنيسة الشرقية والغربية وله نحو سبعة عشر قرناً .

وكيف صفى الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت ، بل إن الخلاف يُطوي بين الصليبية والشيوعية إذا كان الهدف القضاء على الإسلام !!!

عجباً .. لِمَ كل هاتيك السخائم الخسيسة ؟ على أية حال لقد ثبت المسلمون على الحق ، وتَحمّلوا في سبيله العنت ، وإن كان القضاء العسكري وحده هو الذي يبت في قضاياهم ، ويهدي دماءهم إلى عُشّاق رؤيتها .

ذلك .. وظهر أن الإسلام لم يمت في تركيا ، ولا في إيران مع طول الوأد والخسف . وطول اللّيل المضروب على المُعذبين .

وتبدأ صحف الغرب تلفت قومها إلى التحرك الإسلامي الجديد .

ثلاث صحف غربية ، هي « التايمز » و الجارديان » و« الهيرالد تريبيون » تحدثت خلال أسبوع واحد فقط ، عن تحرك المسلمين في أقطار مختلفة من أوطانهم ، منطلقين من عقيدتهم ، ورافعين راية الإسلام في تحركهم هذا .

صحيفة « التايمز » بدأت حديثها بقولها : « جرت العادة منذ الحرب العالمية الثانية على النظر إلى شئون العالم على أنها صراع عالمي بين أيديولوچيتين متصارعتين هما الماركسية والرأسمالية الحرة !

وبعد ذلك أُطلق على هاتين الأيديولوچيتين « الشرق » و « الغرب » وأصبح الصراع بينهما متمثلاً في الصراع بين قوى الأطلسي والكتلة الشرقية ، واحتجاجا على هذه النظرة للأشياء ظهرت حركات جديدة » .

وتتحدث الصحيفة عن أمثلة لهذه الحركات ثم تمضي فتقول : « أما المثال الأكثر أهمية فيتعلق بمصر ، وبالعالم الإسلامي كله . وقد أشار مراسلنا في تقرير له من مصر إلى اتساع نطاق المشاعر والأنشطة الإسلامية ، وبشكل خاص بين الطلبة والشباب الصغار ، وأضاف أن بعض الدوائر الحكومية تعد هذه الحركة الإسلامية خطراً ذا قوة متزايدة ، وأن هذه التجمعات بعيدة كل البعد عن الماركسية » .

وتتابع « التايمز » حديثها فتقول : « ليست هذه الصحوة الإسلامية مقصورة على مصر بالطبع ، فهناك نسخة أكثر منها وضوحاً في إيران ، وأُخرى في باكستان ، وهناك علامات على وجودها في أندونيسيا ، ومؤشرات على انبثاقها في بعض مناطق الاتحاد السوفييتي المسلمة .

أما إفريقيا فقد أحرز الدين الإسلامي بعض التقدم على حساب المسيحية والديانات المحلية الأخرى .

وعلى المستوى الدولي ، فقد ازداد الشعور بالتضامن الإسلامي بعد أن احتلت إسرائيل القدس الشريف ، وبعد حرق المسجد الأقصى من قِبَل إسرائيل كما قال المسلمون ، وقد أدى هذا إلى إيجاد المؤتمر الإسلامي وإقامة سكرتارية دائمة له .

ومنذ ذلك الوقت استُخدمت الثروة النفطية في بعض الدول الإسلامية لمسانده الحركات الإسلامية وإيجاد حكومات وحكّام مسلمين يُشَكلون قوة ينبغي على القوى الكبرى أن تنظر إليها بعين الجد ، وأن تتعامل معها على قدم المساواة .

وهذا لم يحدث منذ تدهور وسقوط الإمبراطورية العثمانية » .

وبأسلوب التحذير من صحوة المسلمين تقول صحيفة « التايمز » :

« وعلينا أن نتذكر أن الجزء الأكبر من العالَم الاسلامي لا ينظر إلى روسيا على أنها « الشرق » بل على أنها جزء من «الشمال » أو حتى من «الغرب» .

ومعظم المسلمين يمقتون الغرب ويكرهونه كراهية حذرة أحياناً ، لكنها تثور وتفور في بعض الأحيان الأُخرى كما هو حاصل في إيران في الوقت الحاضر .

إن المسلمين يكرهون الغرب لأنه برز واشتهر على حساب انحسار « المد الإسلامي » ولأن الغربيين جاءوا دُخلاء على العالَم الإسلامي ، وفرضوا عليه كل ألوان الخِزي والعادات السيئة » .

وتختتم صحيفة التايمز حديثها فتقول : « العالَم الإسلامي يعتريه اليوم تطلع ظاهر وحاجة لتأكيد ذاته وهويّته .

فبعض أجزائه يرد بعنف على الماركسية ، وفي الأجزاء الأُخرى تتركز ردة الفعل الشديدة على الثقافة الرأسمالية الغربية التي يعتبر خطرها أكبر من خطر الماركسية .

الغرب اليوم أمام خطر إسلامي سيجعله يدفع الغالي والنفيس بسبب عجرفته الماضية ونجاحه السابق » .

أما صحيفة « الجارديان » فتقول : « في كل أنحاء العالَم بعث إسلامي جديد ، ففي إيران اضطر الشاه وهو المثال القوي للحكم الملكي ، إلى التراجع الذي لا يعرف أين ينتهي .

وفي باكستان لعب هذا البعث دوره في إزاحة « بوتو » عن منصب رئاسة الحكومة إلى زنزانة الموت .

إنه لتهديد واسع الخطر بالنسبة إلى زعماء الوطنيين - مثل أنور السادات الرئيس المصري ، وبولنت أجاويد رئيس وزراء تركيا .

إن البعث الحالي يملك من القوة الكبرى مما لم يدركها المسلمون العاديون والغربيون إلا مؤخراً ، أو هم بدأوا حديثاً في إدراكها كظاهرة مميزة ساطعة وفريدة .

يقول أحد الزعماء المسلمين في باكستان : عندما نؤمن بأن اللّه أعطانا كل قواعد اللّعبة ، وأن ما يلقي عقاب اللّه يجب أن يلقي عقاب الدولة ، عندها فقط يمكن حل مشاكل باكستان أي لا بد من العودة إلى الإسلام .

ويقول الجنرال ضياء الحق رئيس الدولة الباكستانية من مكة المكرمة : إن في الإسلام نجاتنا ديناً ودنيا ، ويقول الإخوان المسلمون المنبعثون الآن : إن الحكومة المصرية « ملعونة » لأنها تنكر دين اللّه وحكمه » [1] .

وترى « الجارديان » أن أسس هذا البعث تعود إلى التحول في أوائل هذا القرن « كما تدل سن بعض قادته - آية اللّه الخوميني - في الثامنة والسبعين ، ومولانا المودودي في الخامسة والسبعين » .

وتتابع الصحيفة فتقول : « على أن هذه الحركات التي تنبعث من خلال تحولات التاريخ ، وبين الفينة والفينة لا علاقة كبيرة لها بالتجاوب التقليدي الذي ينبعث أحياناً في المسيحية ، كما أنها أقل ارتباطاً بالتفسير الإسلامي الجديد للقيم الغربية والذي بدأ على يد الأفغاني . ثم إن هذه الجذور لا تظهر فيما يسمى بالقومية الإسلامية الجديدة .

وفي الحقيقة إن أتاتورك وعبد الناصر ورضا شاه وسوكارنو وسائر الزعماء المعاصرين رفضوا هذا البعث الإسلامي بحدة وجدية حاسمتين ..

أما العوامل التي أعطت هؤلاء المسلمين المتمسكين بعقيدتهم حياة جديدة خلال السنوات الأخيرة فهي عوامل معقدة ولكن اثنين منها لهما أهمية بارزة .

---

(١) النقل هنا عن مجلة المجتمع الكويتية ، وهو عن صحف إنجليزية كما قرأت .

الأول : هو الإدراك بأن الغرب الذي كان على قدر كبير من القوة يبدو الآن غارقاً في المشاكل والأزمات .

والثاني : ناشيء عن أخطاء القومية العلمانية في العالَم الإسلامي نفسه ، إن مولانا المودودي مؤسس « الجماعة الإسلامية » وهو الحزب العقائدي الإسلامي الأول في باكستان ، يعلم بأن الرأسمالية والفاشستية والشيوعية كلها من نتائج الانهيار والفساد في الحضارة الغربية . و« البنا » مؤسس جماعة الإخوان المسلمين بَشَّرَ بالدعوة نفسها . والمفكر الإيراني « السيد الحسين » أحد أبرز المبشرين بهذه العقيدة يجادل بأن « التصور البشري » للإنسان - كما هو قائم في الغرب - هو الذي جرَّه إلى ما دون الإنسان ، وأن عليه أن يرتفع إلى التصور الإسلامي .

إن أتاتورك الذى وصف الإسلام بأنه « أحكام ونظريات شيخ عربي » كان من أسوأ النماذج لهؤلاء ، ورضا شاه - والد الشاه السابق في إيران - كانت أعماله وسياسته شبيهة بأعمال الحاكم التركي وسياسته .

إن لُب المعتقدات الإسلامية هو إدراك المعاني الحقيقية في الدين ، واعتباره نظاماً كاملاً مشتقاً من القرآن ومن سُنَّة النبي ، والقرآن يضع الأسس اللازمة لكل وجه من أوجه الحياة الشخصية والاجتماعية والسياسية .

وتختتم صحيفة « الجارديان » مقالتها بقولها : « على أن انتقاد « المتدينين » هؤلاء للحضارة الغربية و« للتحرر » في العالَم الإسلامي له مبرراته ، حيث يرى بعضهم في العودة إلى القيم الإسلامية طريقاً للخروج من مآزق العالَم المادي الذي يسود حضارة العصر التكنولوچي المثقل بالتعقيد والهموم » .

أما صحيفة « الهيرالد تريبيون » فتقول : « الاضطرابات السياسية في إيران بدأت تقلق المسئولين في الولايات المتحدة ، لأنهم ينظرون إليها كمركز لثورة دينية مضادة بدأت تترك بصماتها على الأحداث السياسية في مختلف مناطق العالَم من لبنان إلى سوريا إلى المملكة العربية السعودية إلى باكستان » .

وتتابع الصحيفة فتقول : « وكل دولة في هذه المعركة العالَمية تختلف في

ظروفها عن الدولة الأخرى ، ويجب أن نلحظ شيئاً من هذا النزاع - بين أساليب الحياة « القديمة » و« الجديدة » - يدور في أمكنة أخرى من الشرق الأوسط . وهذا الشيء واضح جداً في القتال الذي يدور بين قوات التحالف الكتائبي وخصومها في لبنان .

وهو ملموس في تركيا والعراق وسوريا وبالمملكة العربية السعودية .

وهو يؤثر بشكل جانبي على محادثات السلام بين مصر وإسرائيل . وما يحدث الآن في إيران يمكن أن يمتد إلى العراق والدول النفطية التي تمتلك من المال أكثر مما تمتلك من الاستقرار .

والعراق له موقفه من الإسلام [1] وهناك انقسامات في أفغانستان وباكستان ودول الشرق الأوسط القريبة من الاتحاد السوفييتي » .

ثم تُصوِّر الصحيفة خطر هذا البعث الإسلامي على إسرائيل : « والغريب أن المسئولين الإسرائيليين يرون في هذه الثورة الدينية المضادة خطراً يهدد استقرار إسرائيل والدول العربية على حد سواء ! ولذلك فإنهم يأملون أن يتجنب « السادات » و « بيجن » المناقشات الفنية ، والجداول الزمنية ويسويان الخلافات بينهما دون إبطاء .

وهم يقولون - إن هنالك أشياء أهم بكثير من الخلاف بين مصر وإسرائيل تجري في الشرق الأوسط ، وفي مقدمتها النزاع الذي سيؤدي إلى الفوضى التي لا يريدها أحد إلا زعماء الاتحاد السوفييتي » .

هذا بعض ما جاء في هذه الصحف الغربية الثلاث من كلام تُسلِّط به الضوء على البعث الإسلامي الجديد . الذي يشمل المنطقة الإسلامية كلها .

* * *

(١) فلسفة حزب البعث ترفض الولاء للإسلام والاستمداد منه .